بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:15\9\2021 م **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

يقع الكلام في الآية الرابعة والخامسة، بعد ذكر المحسنين شرع في ذكر صفاتهم، فقال تبارك وتعالى: ﴿الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولئكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (5)﴾[1] هذا النوع من التعبير تكرر في القرآن الكريم، ففي سورة البقرة: ﴿الم (1) ذلكَ الْكتابُ لا رَيْبَ فيه هُدىً لِلْمُتَّقينَ (2)﴾[2] ثم شرع صفات المتقين ﴿الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (3)﴾[3] في هذه الآية المباركة ما يرتبط بالفروع قدمه على ما يرتبط بالعقيدة، ففي هذه الآية بدأ: ﴿الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾[4] أما الإيمان بالآخرة والإيقان بها -الذي هو من الغيب أيضًا- أخره، هناك مجموعة من المحطات ينبغي أن نقف عندها في هذه الآية المباركة:

المحطة الأولى: في الواقع هنا لا يوجد عندنا صفات ثلاث، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيقان بالآخرة، وإنما عندنا صفتان: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، أما الإيقان بالآخرة لم تجعل في الآية صفة من صفات المتقين حتى يقال في سورة البقرة قدم الإيمان بالغيب على الأعمال الفرعية، هنا كلام عن المحسن، في الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ يعرف الإحسان هكذا، يقول النبيﷺ: «الإحسان أن تعبد اللّه كأنك تراه»[5] فإن لم تكن تراه فأنه يراك، من يعبد الله كأنه يراه هو من وصل إلى مرحلة اليقين، ومن وصل إلى اليقين بالآخرة لابد أن يعمل.

---

[1] لقمان 4-5

[2] البقرة 1-2

[3] البقرة 3

[4] لقمان 4

[5] رياض السالكين في شرح صحيفة سيّد الساجدين ج6 ص467

إذن المحسن هو من يعمل لأجل أنه وصل إلى يقين بالآخرة، وذكر للعمل نموذجين: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

وهذا التفسير ليس تفسيراً تبرعياً، بل يتناسب مع اللغة والقواعد، فإن الآية هكذا: ﴿الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾[6] لو كان الإيقان بالآخرة صفة ثالثة مقتضى السياق أن يقول: الذين يقيمون الصلاة يؤتون الزكاة ويوقنون بالآخرة؛ لأن الصفات جاء بها بصورة جملة فعلية، بلحاظ صلة الموصول، وإلا هي جملة اسمية باعتبار أن الموصل هو المبتدأ، لكن بلحاظ صلة الموصول هي جملة فعلية، الذين يقيمون الصلاة، الذين يؤتون الزكاة، مقتضى السياق الذين يوقنون بالآخرة، فغير التعبير إلى قوله: ﴿وَهُمْ بِالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ﴾[7] وهذا التعبير يدل على الانحصار، أن الإيقان بالآخرة ينحصر بالمحسن.

والحاصل أن إقامة الصلاة هو إحسان إلى النفس، وإيتاء الزكاة هو إحسان إلى الغير، والإيقان بالآخرة هو الداعي لهذين العملين، لا أنه صفة في مقابل هذين العملين.

وعلى هذا الأساس، فقوله: ﴿وَهُمْ بِالآخرة هُمْ يُوقِنُونَ﴾[8] ليس عطفاً على الصلة، وإنما الأولى كما ذكر الزمخشري: إنما الأولى أن تكون جملة استئنافية أو جملة حالية، إما جملة مستأنفة وإما جملة حالية[9].

المحطة الثانية: لماذا خص من بين الفروع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أن الفروع كثيرة؟ في الواقع -كما أشرت قبل قليل- باعتبار أن الكلام عن الإحسان يريد الباري تبارك وتعالى أن يذكر نموذجين للإحسان: أحدهم يرتبط بالذات والآخر يرتبط بالغير، وإنما خصصهما من بين سائر الفروع لأهميتهما، وهذا كثر قرنهما في القرآن الكريم إيتاء الزكاة بإقامة الصلاة، عندما أراد القرآن الكريم أن يعرفنا

---

[6] لقمان 4

[7] لقمان 4

[8] لقمان 4

[9] الكشاف عن حقائق وغوامض التنزيل ج3 ص347 "وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ كيف يتصل بما قبله؟ قلت: يحتمل أن يكون من جملة صلة الموصول، و يحتمل أن تتم الصلة عنده و يكون جملة اعتراضية، كأنه قيل: و هؤلاء الذين يؤمنون و يعملون الصالحات من إقامة الصلاة و إيتاء الزكاة: هم الموقنون بالآخرة، و هو الوجه. و يدل عليه أنه عقد جملة ابتدائية و كرّر فيها المبتدأ الذي هو هُمْ حتى صار معناها:و ما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان و العمل الصالح، لأنّ خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق.

على الولي بعد النبي ﷺ بعد الإيمان بأنه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، هذا الولي الأعظم بعد النبي الأعظم ﷺ الذي كما يقول الشاعر:

جُمِعَت في صِفاتِكَ الأَضدادُ فَلِهَذا عَزَّت لَكَ الأَندادُ[10]

تركت كل تلك الصفات، لا العلم ذكر، لا الشجاعة ذكرت، لا الزهد ذكر، وخصص الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، إقامة الصلاة بما تمثل من عبودية لله تبارك وتعالى، أي: علاقة بين العبد وخالقه وإيتاء الزكاة بما تمثل من علاقة بين العبد وأخيه العبد. وهذان متكاملان، لا يمكن أن تكمل العبودية لله إلا من خلال رعاية خلق الله، عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّوْفَلِيِّ عَنِ السَّكُونِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام "قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْخَلْقُ عِيَالُ اللَّهِ فَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ مَنْ نَفَعَ عِيَالَ اللَّهِ وَأَدْخَلَ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ سُرُوراً.»[11] إذن هاتان الخصلتان بينهما تناسب، الإسلام لا يدعو إلى رهبانية، وإلى أن الإنسان يهتم فقط بعلاقته مع ربه، هذه العلاقة مع الله تبارك وتعالى لا تكون كاملة إلا بإضافة العلاقة مع الخلق له، عبودية علي عليه السلام وعاطفة علي التي أدت إلى التصدق بخاتمه وهو في حين عبوديته هي التي أعطته هذا المقام بأن يكون هو الولي الأعظم.

فإذن المحسن هو من يكون عبداً لله لما تمثله إقامة الصلاة، والمحسن هو ذلك الإنسان الذي على يعطف عيال الله وعلى خلق الله تبارك وتعالى من خلال ما تمثله إيتاء الزكاة، وكل ذلك نشأت من أن المحسن وصل إلى مرحلة اليقين بالآخرة، ومرحلة اليقين في الآخرة تتضمن كل العقائد على الإطلاق، لا يمكن اليقين بالآخرة إلا من خلال المرسل والرسول، إلا من خلال الإيقان بالتوحيد والإيقان بالرسالة وبوجود رسول، والآخرة إنما هي مرحلة للحساب على هذا الإيمان. إذا هذه هي المحطة الثانية في هذه الآية المباركة.

المحطة الثالثة: لقائل أن يقول: إن ﴿الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ﴾[12] هذا الإيتاء لزكاة يتناسب مع الآيات المدنية؛ لأن الزكاة شرعت في المدينة، ولم تشرع في مكة، وسورة لقمان مكية؛ لأجل

---

[10] صفي الدين الحلي
[11] الكافي ط دار الحديث ج2 ص 164
[12] لقمان 4

لذلك في بداية البحث عن السورة ذكرنا أن بعض علماء التفسير، قال: بأن تمام السورة مكية باستثناء هذه الآية، وجد أن إيتاء الزكاة شرع في المدينة المنورة فكيف يتناسب مع كون مكية!

هناك توجيهات متعددة للعلماء، في الواقع باعتقادي أن الأمر سهل في هذه الآية؛ لأن الزكاة لا يقصد منها هنا المعنى الاصطلاحي، وهي الزكاة الواجبة في مقابل الصدقة المستحبة، وفي مقابل الخمس، إنما المقصود من الزكاة هنا الإعطاء للمال، وإيجاد هذه العلاقة بين الغني والفقير، وهذا لا يفرق فيه بين مكة وبين المدينة، فإن هذه التعاليم العامة للإسلام التي حببت الناس فدخلوا في دين الله أفواجاً، هذه قد طرحها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله منذ بداية بعثته.

نعم، التشريعات الخاصة جاءت مرحلية وآنية بحسب الزمان والمكان، أما عموم الشريعة بعموماتها العامة التي جلبت من كان يعيش في الجزيرة العربية قد بُينت في ذلك الزمن، من تلك الأمور التي بُينت هي الصدقة والعطف على المحتاج ومساعدة الغير، هذه كلها زكاة، فحينئذ لا يشكل على هذه الآية ولا يكون ذلك مدعاة لاستثناء هذه الآية من كون السورة مكية من دون أن يكون عندنا أي دليل نقلي خاص غي ذلك، ومجرد التعبير بيؤتون الزكاة لا يكون دليلاً على أن هذه الآية مدنية، خصوصاً أنها واقعة في سياق مترابط كما بينا، يعني الآية بعد أن ذكرت المحسنين ذكرت صفات المحسنين، لا يعقل أنه ذكر المحسنين في مكة ثم أجّل ذلك وذكر صفات المحسنين في المدينة المنورة، ظاهر هذا أنه مقطع واحد، وأنه نزول مقطعي واحد، لا أنه نزلت هذه الآيات المترابطة بصورة تدريجية.

كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني